

الفصل الثماني

الميلاد

- ولد في عالم من السحر والخرافة .
- عندما أراد والده تغيير اسمه بالطريقة القانونية .
- عندما منع من أكل الجبنة الرومي من أجل سيدى الطرطوشى .
- كان يصاب بالحمى كلما شاهد موكبًا جنازياً .
- أمنيته وهو طفل صغير أن يصبح محولجى قطارات .

لحظة الميلاد

حملت الأم في وليدها الأول ، وجاءت الثمرة الأولى في شجرة أسرقى الحكيم « أهل الريف » والبسطامي « أهل البحر » في وليدها البكر . كانت الأم والأب يقيمان في « المحلة الكبرى » بجوار مقر عمله كوكيل نيابة ، ويتنقل من بلد إلى بلد ، كلما دعاه داعي العمل في السلك القضائي . ولما اقترب موعد وصول الحدث السعيد ، رأى الزوج ، أن ينقل زوجته الحامل إلى منزل الأسرة في الإسكندرية ، لتجد العناية من والدتها وأختها الكبرى والعديل ، الذين كان من الممكن أن يسهروا عليها في أثناء غيبته في تلك الظروف .

عاشت الأم الحامل في بيت الأسرة الهادئ الوادع في حيّ محرم بك بالإسكندرية ، الذي يقع بين الأشجار ، بعيداً عن شاطئ البحر ، الذي يلوح على مدى البصر ، قبل أن يمتد العمران ، ويفصل بمبانيه ومنشآته عن الشاطئ . لكن هذا البيت كان يعيش في جو من السحر والخرافة في انتظار وصول الحادث السعيد ، فقد كانت الجدّة ، تلجأ إلى التعاويذ والطلاسم السحرية وإحراق البخور ، لتطرد الجنية ، التي كانت سبباً في موت أطفالها الذكور الستة ، الذين أنجبتهم موتى ، بين مولد الأخت الكبرى والأخت الصغرى . وقدّر للأدب والفن والفكر ، أن يكسب علماً من أعلامه الكبار ، فقد

سحقت جنية البحر ، وخرج الوليد المبكر إلى الحياة ، في الساعة الرابعة فجر يوم ٩ أكتوبر ١٨٩٨ .

وكان ساعة مولده ، هو بعينه ذلك الأديب المتأمل الساخر ، الذى عرفناه فيما بعد .

كتب فى « سجن العمر » يقول :

- روت لى واللى - فيما بعد - أنى هبطت إلى الدنيا فى صمت ، دون بكاء أو صراخ أو عويل ، شأن الكثير من الأطفال ، فحسبتهى نزلت ميتاً فارتاعت وهى على فراش وضعها ، وسألت « القابلة » التى ألفت بى بعيداً لتعنى بالأم : لماذا لا يبكى ويصيح ككل المواليد الأصحاء ؟ والتفت الجميع إلى ناحيتى ، فوجدونى أنظر - كما زعموا - إلى ضوء المصباح ، وأصعبى فى فمى شأن المتعجب !

وثائق الميلاد

ووثائق مولده ، تقول :

- إن الوالد كان وقت الميلاد غائبا ، فتلقى برقية ، ورسالة من عديله إبراهيم سعود بك ، الذى كتب فى الرسالة يقول :

- « أرسلنا إليكم اليوم تلغرافاً تبشيراً بقدوم نجلكم السعيد . وتفصيل الخبر أنه فى الساعة العاشرة مساءً ، شعرت السيدة حرمكم بألم يشبه الطلق فأرسلت الخادم إلى القابلة ، فامتنت بقولها : . ربما لا يكون الأمر كذلك . ولم نزل مترقبين حالتها إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، حيث أشدت الألم ، ولم يعد

هناك شك في اقتراب الوضع ، وعندها أرسلنا الخادم . وفي الساعة الثالثة ، حضرت القابلة ، وباشرت أعمالها . . إلى أن كانت الساعة الرابعة ، أقبل « أختينا » مصحوبًا بسلامة الوصول ، وقد رأيته صباح اليوم ، فوجدته مثل أبيه ، ولكن بدون شوارب ! » .

ويعضى الحكيم ، ويقول :

- وقد أشّر والدي على هذا الخطاب بالقلم الرصاص ، وكتب يقول :

- « كنت هذا اليوم موجودًا بالسنترة ، فورد لي تلغراف من الأخ عديلي

هذه صورته :

« رزقتم ولدًا فأطمئنكم وأهثكم »

وقد كنت في ذلك الوقت في أودة الجلسة أتكلم مع القاضي على بك جلال

في شئون مختلفة ، وكانت الساعة وقتئذ ١٢ ونصف أفرنجى .

ونقل والدي هذه التأشيرة إلى دفتر صغير ، اعتاد أن يدون فيه بعض

شئونه ، وأضاف فيه إلى ما تقدم ، هذه العبارة :

- تحرر إلى خطاب آخر من عديلي ، يطلب فيه تسمية المولود ، فلم أوفق

إلى اسم له ، فحررت إليه جوابًا بأني فوضت الأمر إلى والدته في التسمية .

ثم ذهبت إلى الإسكندرية ، وزرت زوجي ، فوجدتها متحسنة الصحة ،

وأخبرتني أن الغلام سمي باسم « حسين توفيق الحكيم » فلم يرق هذا الاسم عندي

وصممت على تغييره بالطريقة القانونية .

العفاريت

ونظرًا لنشأة الطفل الصغير في محيط أسرة والدته ، التي كانت تعيش في عالم السحر والخرافة ، فإنه كان يرى أشباح العفاريت ، متدثرة في البياض أو السواد وهي تظهر وراء الأبواب ، ثم تختفي بسرعة البرق .

وقد كان يرتاع منها أشدّ الروع ، وبحار في طريقة ظهورها واختفائها ، حتى أدرك فيما بعد أن تلك الأشباح ، لم تكن من الجن ، وإنما كانت من الإنس ، لأن الخادم أو المرضعة ، كانتا يتدثران في ملاءة الفرش البيضاء ، أو في ملاءة أخرى سوداء لتخيفاه وتسكناه ؛ لأنه كان طفلاً مزعجاً بشقاوته وعفرفته . كان يلقي بأدوات المنزل وأوانيهِ من ملاعق وشوك وسكاكين وأطباق وغيرها من النافذة ، والفرجة عليها والمرح بمنظرها وهي ملقاة في الطريق .

وتعدّى الأمر ذات يوم إلى « غويشة » ذهبية للمرضع ، اشترتها بكل ما ادخرته من أجرها ، وانتزعها من صدرها غفلةً ، وألقى بها في الطريق ، ولم يدرك بعد ذلك إذا كانت المرضع قد استردت قطعها الذهبية أم لا - لأنه تصادف في ذلك اليوم أن كانت والدته قد أغلقت عليها باب المنزل من الخارج بالفتاح كعادتها عندما تغادر البيت ، حتى لا تنزل به المرضع إلى الطرقات . ولما ألقى بتلك الحلية إلى الخارج ، جنّ جنون صاحبها ، ووقفت تنظر إليها ، وهي ملقاة في الشارع ، وجعلت تصيح وتستغيث بالمارة والجيران ليعيدوها إليها ، والطفل الصغير ينظر ضاحكاً في سعادة لما يجرى حوله .

وقد منع في سن الطفولة من أكل الجبن الرومي ، وفاة لنذر عليه لسيدى الطرطوشى .

فقد تألّبت عليه الأمراض ، وهو بين الخامسة والسادسة ، واستغرقت عدّة سنوات .

ولهذا عاجلته جدّته بطريقها المألوفة ، وأخذته ذات صيف إلى مقام سيدى الطرطوشى ، الذى كان مشهورًا بشفاء الأمراض ، خاصةً للحمّى التى كانت تلازمه ملازمة رفيق السوء .

وفى سبيل الشفاء ، كان هنالك شرط لا بدّ منه ، وهو الوفاء بنذره المعروف ، بالامتناع عن أكل الجبن الرومى ؛ لأنه كان يمقت الجبن الرومى على عكس الطفل الصغير الذى كان يحبها حبًّا شديدًا .

وقد وقى بهذا النذر ، ولم تمسّها شفتاه فترةً طويلةً ، وهو يتساءل - هل سيدى الطرطوشى ، وهو من أولياء الله الغابرين ، كان معاصرًا لظهور الجبن الرومى ؟

ومع هذا شفى من المرض .

الشحاذ الصغير

ويروى الحكيم من ذكريات الطفولة ، أن والدته ، قد تناوبتها العلل بعد ولادته ، وقيل يومها إن الحمل الأول ، ثم الولادة قد أضرت بصحتها ، وانخلعت كلية من كليتها من مكانها . وربما ترتدّ إلى موضعها بحمل آخر . حيث تحقق ذلك ، بعد أن ولدت أخاه الثانى « زهير » الذى أطلق عليه والده هذا

الاسم تيمناً باسم الشاعر الجاهلي « زهير بن أبي سلمى » الذي كان يحفظ معلقته المشهورة عن ظهر قلب .

وكان هذا المرض قد جعل الوالدة لا تشبع من الطعام ، فكانت تضع بجوار فراشها سلّة صغيرة من الفاكهة ، كان كلما امتدت إليها يد الصغير ، قيل له إنه دواء من الأدوية .

كما كانت تحبّ الحلوى ، وتأكلها بعد وجبة الغداء ، وتقول له كلما مدّ إليها يده بخوف ورجاء :

- إنما أيضاً دواء وصفه لها الطبيب .

لكنه - كما يقول - لم يكن مقتنعاً بهذا القول . فكانت إزاء وقفته المستجديّة ، كشحاذ صغير يلتمس الحسنة ، تلقى إليه بقطعة منها قائلة :

- خذ وروح في داهية !

فإذا جاء موعد الغداء التالي ، ذهب إليها يمدّ يده ، كشحاذ صغير ويقول :

- أعطيني واحدة ، وقوليلي روح في داهية .

هذا في الوقت الذي كان فيه أخوه الصغير لم يكن يمدّ يده بالسؤال ، بل يحطف من يدها ما يراه خطفاً ، كالصقر المنقض .

ويعلم تلك الجرأة من أخيه ، بأنها قد جاءت بالوراثة عن والدته ، فكانا بذلك من معدن واحد ، مما سبب لها كثيراً من المتاعب . بينما كان هو يميل إلى الهدوء والتأمل ؛ لأنه أخذ الكثير من سمات أبيه . لكن مع بركان داخل في أعماقه من والدته مثل بركان « فيزوف » ينشط ويحمد في فترات ودورات . وكان كثيراً ما يتحمّل ثمن شقاوة أخيه . فإذا تقاذفا بشيء أدى إلى كسر لوح زجاج ، يأتي لها الوالد بالفلقة ، فتكون العلقمة من نصيبه وينجو الأخ من

الضرب لأنه عندما يأتي دوره يصيح ويتشج ويكي ويلعن .
لم يكن طفلاً مدللاً .

ولم يهنأ ككل الأطفال باللعب والهدايا ، فالهدية الوحيدة التي تلقاها من أبيه كانت عبارة عن وابور صفيح صغير في حجم الأصبع ، يباع بنصف قرش ، قدمه إليه ، وهو يقول :

- خذ العب يا وله !

فلم يفرح به كثيراً ؛ لأنه كان ضئيلاً جداً ، ولا يسير إلا دفعاً باليد ، لا يملأ بمفتاح ، ولا يبهز لونه النظر .

ولم يكن يحتفل في تلك الأيام بأعياد الميلاد ، وكان اليوم الوحيد الذى يشعر فيه الطفل بأنه يوم عيد ، هو يوم العيد الكبير أو الصغير ، الذى كان يتلقى فيه خمسة قروش « عيدية » ، كان يلعب بها طوال أيام العيد ، ثم يردها بعد ذلك إلى أهله دون أن ينفق منها قرشاً واحداً .

ومن بين مظاهر العيد ، أن الوالد كان يصطحب الأخوين إلى محال الملابس المعروفة في القاهرة كمحلى « ماير » و « ستاين » فيختاران الملابس الغالية ، بينما يحرص الوالد على قراءة بطاقة الثمن . . ويشير إلى البائع من طرف خفى ، ليأتى بالأصناف ذات الثمن الأرخص .

وكان يصاب بحمى تلزمه الفراش ثلاثة أيام ، كلما وقع بصره على جنازة مارة . مما جعل أهله يجتنبونه تلك الجنازات .

وفتن في طفولته بفن العرائس « الأراجوز » خصوصاً الطلبة التي كان لها وقع السحر على نفسه . كتب في كتاب « فن الأدب » يقول :

- إذا أردت أن تعرف ما هو أروع صوت كان يهز مشاعرنا ، ونحن صغار ،

فاعلم أنه صوت الطبله ، لا طبله الجيش المظفر ، سير تحت نوافذنا منشور البنود
ولا طبله حراس « المحمل » تدق من فوق الجبال المزوقة ، ولا حتى طبله
« المسحراقى » فى ليلى رمضان الساحرة ، بل طبله صغيرة متواضعة ، هى طبله
« الأراجوز » إذا اقترب من جنبنا .

عندئذ ترى العجب ، أفواجًا من الأطفال ، يخرجون من بيوتهم ركضًا
كأنهم جنود ، يهيون من نكباتهم على دقات طبل « الطابور » ويجمعون كالمثل
فى تلك الساحة ، حيث ينصب الأراجوز مسرحه الضيق المرتفع ، يتطلعون إليه
بعيون شائعة ، وأبصار زائغة ، ينتظرون ظهور تلك الأشخاص المتحركة
المتكلمة الصاخبة ، أو تلك التى نسميها نحن الكبار « الدمى » .

وظلّ شغوفًا بفضّ الأراجوز حتى بعد أن أصبح فى « زهرة العمر » وشاهد فيه
رائعةً من روائع المسرح العالمى ، فيقول :

- شاهدت فى عام ١٩٣٦ رواية « فاوست » لجوته ، فى سالزبورج يخرجها
المخرج العظيم ماكس راينهارت وقد رأى - إغراقًا فى طلب الروعة - ألا يلجأ
إلى مسرح أو مناظر أو ستائر ، بل يشيد بالحجر والآجر ، مدينةً بأكملها فى
سفح الجبل ، هى المدينة التى تجرى فيها حوادث الرواية فى القرون الوسطى ،
بكنائسها القوطية وحاناتها وبيوتها ونافوراتها ، وجعل الممثلين ينتقلون بينها كما
ينتقلون فى الحياة ، والنظارة على المدرجات يشاهدون العرض فى الهواء الطلق .
ثم حضرت بعد ذلك فى سالزبورج نفسها رواية « الدكتور فاوست » لمارلو
تخرجها فرقة « أراجوز » على مسرح للكبار . ولكن أى أراجوز ! ؟ لقد كانت
الدمى فيه بنصف الحجم الطبيعى ، زاهيةً فى ثيابها التاريخية ، تتحرك فى مناظر
خلافة من أشجار يانعة وبيوت ومدن ، تسلط عليها إضاءة تحيّر العقول لقد

كانت الجحيم التي تردى فيها فاوست تكاد ببراعة الفن ، تكون جحيمًا حقيقةً
بنار ذات لهب ، والقارب الذي أوصله إلى مملكة الموت يكاد يمحّر في أمواج
ذات هدير ، والقفاريت بقروهم والزبانية بشوكاتهم . لم يترك خيالاً لمشاهد ،
ولم يعتمد على تخيلة متفرج . ولا عجب فهو يعلم أنه يتقدم إلى نظارة من
الكبار .

مخولجي قطارات

وكان ينهر في طفولته أشدّ الانهار بفانوس رمضان . كتب عن ذلك في
كتابه « فن الأدب » يقول :

- « كم سعدنا في طفولتنا الجميلة بشهر « رمضان » وكم شقينا أيضاً . من
ذا الذي لا يذكر خفقة قلبه الصغير في صباحه ، وهو أمام حانوت « السمكري »
يقلب أنظاره الشائعة وأبصاره الزائغة في مختلف الفوانيس بزجاجها ذى
الألوان ، ما أبهج ذلك الفانوس الأصفر الأخضر الأحمر المعلق في القمة .
ولكن ثمنه لا شك باهظ .

أقول ذلك لأنى لم أظفر في طفولتى بكل ما كنت أتوق إليه من لعب ،
وأصبو إليه من أشياء ، فكنت أخلقها لنفسى بخيال مشبوب ، وكان من أقرانى
وجيرانى من يملك لعباً نفيسة عجيبةً تملأ حجرته ، وتملأنى دهشةً ، أقف بينها
مشدوهاً ، وأحملق فيها معجباً ، وألسها مكبراً ، وصاحبها الصغير يعبث فيها
بيده الصغيرة محطماً ومحقرًا ، كنت ولا ريب أدرك قيمتها أكثر منه وأرى فيها
أشياء باهرة ، لا تراها عيناه ، وكأن كل لوب فيها ، أو لغز أو مفتاح ، يحرك

كل مخيلتي وهز كلّ واعيتي . كلّ ذلك لأنى لا أملكها ولا أستطيع أن أحصل عليها .

لم تكن لديه أىّ هواية من الهوايات ، أو الألعاب الرياضية ، فيما عدا لعبة عجيبة ، شغل بها منذ الصغر . فكتب يقول :

- لم أكن بطبعي ميّالاً إلى أىّ نوع من أنواع الألعاب . اللهم إلا لعبة محولجى « السيمفور » وأنا غلام ، عندما كنا نقطن في دمنهور على شريط السكة الحديد . كانت نافذة حجرى مجاورة لكشك الإشارات ، فوضعت عليها من الخارج قطعة خشب طليتها بلون « السيمفور » فكنت إذا رأيت « السيمفور » الحقيقى مفتوحاً لمرور القطار ، فتحت أنا « سيمفورى » وتنبّه ذات مرة عامل الإشارات المحولجى الحقيقى ، على عملى فضحك . وصار قبل أن يفتح السكة للقطارات ينظر أولاً إلى نافذتى ، ويغمز لى بعينه ، أن « خد بالك » القطر ظهر افتح له السكة .

تلك هى اللعبة التى كانت تروق لى فى صباى وتملؤنى متعةً وسروراً وزهواً أن أتصور نفسى أفتح السكة للقطار .

ولم يتعلق بحب السباحة ، رغم نشأته على شاطئ الإسكندرية ، كما لم يتعلق بالألعاب التسلية كالطاولة مثلاً ، وإنما كان يتعلق بلعبة البلياردو حتى لعبة كرة القدم لم تستهوه أيضاً . وإن كان قد لعب وهو طالب فى مدرسة الحقوق حارس مرمى فى لعبة الكرة الشراب .

الجحش رقم (١)

ولا شك أن هوايته المفضلة كانت ركوب « الجحش » حيث اشترى فيما بعد

بصداقته للحمير. تحدث عن الجحش رقم (١) في حياته ، فقال :
- ذلك الجحش الذى اشتريته لى جدتى بمبلغ « بريزتين » أى ريال واحد .
لبث يمرح فى غيط البرسيم معزراً مكرماً ، ما لبثت أنا معه فى الريف . فما أن
ولّيت ظهرى وغادرتة ، حتى وضعوا على ظهره غبيط السباخ ، وقادوه ذليلاً
مع غيره من الحمير ، إلى أشقّ المهام وأقذر الأعمال .

المتنبى

والحكيم الذى تنبأ فيما بعد بقيام ثورة ١٩٥٢ قبل موعدها بسبع سنوات
وأسمأها فى كتاب « شجرة الحكم » الصادر عام ١٩٤٥ « الثورة المباركة » كان
متنبئاً أيضاً فى أيام الطفولة .
عندما كان بيت الأسرة بجوار السكة الحديد ، أشار إلى القطار القادم ،
وقال :

- إن جدتى قادمة فى هذا القطار .

ولم يصدق أحد ؛ لأن جدته لم تأت من الإسكندرية منذ وقت طويل ،
وإذا أرادت الحضور ، لابدّ من أن ترسل خطاباً بذلك .
وبعد قليل فوجئوا بالجدّة تدخل البيت حاملةً حقائبها .
ومرةً أخرى تلقى والده برقيةً تقول إن أخاه محمود « توفى اليوم » وحزن
الأب والأم ، وأخذتا يتهيّتان للسفر للجزء .
فقال لها :

- لا تسافروا . لأن عمى لم يميت .
وما انتهى من حديثه حتى دخل عليهم العم المرحوم . واتضح أن البرقية
كانت تقول : « توجه اليوم » فكتبها عامل التلغراف « توفى اليوم » .